مجلة الدراسات الفلسطينية، المجلد 22، العدد 86 (ربيع 2011)، ص 123

أبراهام بورغ*

مجتمع إسرائيلي فاشل ينهار بينما زعماؤه يلتزمون الصمت**

لم تزل الثورة الصهيونية تقوم على دعامتين: مسار عادل، وزعامة ذات أخلاق عالية. لكن أياً من هاتين الدعامتين لم تعد فاعلة الآن. فالأمة الإسرائيلية اليوم تقوم على بنية من الفساد، وعلى أسس من القمع والظلم. ومن حيث هي كذلك فإن نهاية المشروع الصهيوني باتت على عتبة بابنا. ثمة إمكان فعلي لأن يكون جيلنا هو الجيل الصهيوني الأخير. فقد تظل الدولة اليهودية في الوجود، لكنها ستكون من نوع آخر، غريبة وبشعة.

ثمة متسع من الوقت لتغيير المسار، لكن ليس بالكثير. فالمطلوب هو رؤية جديدة لمجتمع عادل، والإرادة السياسية لوضعها موضع التنفيذ. وما هذا بالمسألة الإسرائيلية الداخلية البحتة؛ بل ينبغي ليهود الشتات، الذين تعدّ إسرائيل في أعينهم دعامة مركزية لهويتهم، أن يهتموا بالأمر، وأن يخرجوا عن صمتهم. فالدعامة إذا ما انهارت تداعت الطبقات العليا إلى السقوط.

المعارضة غير موجودة، والتحالف برئاسة إريك شارون يتمسك بحق التزام الصمت. في أمة من الثرثارين، خرس الجميع فجأة، لأنه لم يبق شيء يقال. نحن نعيش في واقع فاشل فشلاً ذريعاً. نعم، أعدنا إحياء اللغة العبرية، وأوجدنا مسرحاً مدهشاً وعملة وطنية متينة. عقولنا اليهودية ما زالت حادة كعادتها. وأسهمنا تباع في سوق الناسداك. لكن هل أوجدنا الدولة لهذا؟ هل استمر الشعب اليهودي مدة ألفي سنة ليكون رائداً من رواد الأسلحة الحديثة، وبرامج سلامة الكومبيوترات، أو الصواريخ المضادة للصواريخ. كان يفترض فينا أن نكون منارة للأمم، لكن أخفقنا في هذا.

وقد آلت الأمور إلى أن صراع الألفي سنة من أجل بقاء اليهود اختزل في دولة من المستوطنات، تقودها طغمة من منتهكي القوانين الفاسدين، الصم عن أصوات مواطنيهم وأعدائهم على السواء. الدولة المفتقرة إلى العدالة لا تستطيع البقاء. وقد صار المزيد من الإسرائيليين يدركون هذا عندما يسألون أولادهم أين يتوقعون أن يعيشوا في السنين الخمس والعشرين المقبلة. فالأولاد الصادقون يعترفون بأنهم لا يدرون،

---

* رئيس سابق للكنيست، ورئيس سابق للوكالة اليهودية، وهو حالياً عضو في الكنيست عن حزب العمل.

** **المصدر**: *Forward* (Internet edition), August 29, 2003.
والمقال عدّله الكاتب عن نص كان نشره في "يديعوت أحرونوت".

وإن كان هذا يسبب الصدمة لذويهم. العد العكسي لنهاية المجتمع الإسرائيلي قد بدأ.

من المريح جداً أن تكون صهيونياً في مستوطنات الضفة الغربية، مثل بيت أيل وعوفرا. المشهد التوراتي أخاذ. ففي وسعك أن تنظر من النوافذ عبر أزهار إبرة الراعي والمجنونة من دون أن ترى الاحتلال. وإذا ما سافرت على الطريق السريع الذي يأخذك من راموت في الطرف الشمالي من القدس إلى غيلو في الطرف الجنوبي، وهي رحلة تستغرق اثنتي عشرة دقيقة تمر على مسافة لا تكاد تبعد نصف ميل عن حواجز الطرق الفلسطينية، يصعب عليك أن تفهم التجربة المذلة للعربي المحتقر الذي يتوجب عليه أن يزحف ساعات على الطرق المحفّرة المملوءة بالحواجز المفروضة عليه. طريق للمحتلين، وطريق للذين يعانون الاحتلال.

لا يمكن لهذا الأمر أن يستمر. حتى لو طأطأ العرب رؤوسهم وغصّوا بِذُلِّهم وغضبهم إلى الأبد، لن يمكن لهذا أن يستمر. فالبنية القائمة على الفظاظة البشرية ستنهار على ذاتها لا محالة. انتبهوا لهذه اللحظة جيداً: البنية العليا للصهيونية بدأت تتداعى كإحدى صالات الأعراس الرخيصة في القدس. وحدهم المجانين يستمرون في الرقص في الطبقة العلوية بينما الدعامات في الأسفل تنهار.

لقد تعودنا تجاهل معاناة النساء على حواجز الطرق. فلا عجب إن كنا لا نسمع صراخ المرأة المستباحة التي تقيم في الجوار، أو الأم العازبة التي تكافح لإعالة أطفالها بكرامة. نحن ما عدنا نكترث حتى لعدد النساء اللواتي يقتلن على أيدي أزواجهن.

لمّا كانت إسرائيل كفت عن الاكتراث لأطفال الفلسطينيين، فالأَولى بها ألاّ تُدهَش عندما يأتون مفعمين بالحقد ويفجرون أنفسهم في مراكز الهروبية الإسرائيلية. إنهم يسلمون أنفسهم لله في أماكن تسليتنا لأن حياتهم الخاصة باتت عذاباً. يسفكون دماءهم في مطاعمنا ليفسدوا شهيتنا، لأن عندهم أطفالاً وأهلين في منازلهم يعانون الجوع والإذلال.

في وسعنا أن نقتل ألف رأس من رؤوس الإرهاب ومهندسيه في اليوم من دون أن يُحَلّ شيء أبداً، لأن الزعماء يأتون من تحت – من آبار الحقد والغضب، من "البنى التحتية" للظلم والفساد الخلقي.

لو كان هذا الأمر أمراً لا مناص منه، قضاء إلهياً وقدراً مقدوراً لا محيد عنه، لالتزمت الصمت. لكن الأمور يمكن أن تكون على غير هذا، ولذا فإن المجاهرة بها ضرورة أخلاقية.

هاكم ما ينبغي لرئيس الحكومة أن يقوله للشعب:

زمن الأوهام ولىّ، وهذا زمن القرارات. نحن نحب أرض أجدادنا كلها، وكنا نفضل

أن نعيش وحدنا فيها في زمن آخر. لكن هذا لن يحدث. فللعرب أيضاً أحلام وحاجات.

بين نهر الأردن والبحر الأبيض المتوسط لم يعد هناك أكثرية يهودية واضحة. ولذا، يا إخوتي المواطنين، لم يعد من الممكن أن نحتفظ بالشيء كله من دون أن ندفع ثمناً. لا نستطيع أن نستبقي الأكثرية الفلسطينية تحت الجزمة الإسرائيلية ونزعم لأنفسنا أننا الديمقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط. لا يمكن أن تكون ديمقراطية ههنا من دون حقوق متساوية لكل الذين يعيشون هنا من عرب ويهود. لا نستطيع أن نستبقي الأراضي المحتلة ونحتفظ بأكثرية يهودية في البلد اليهودي الوحيد في العالم – لا نستطيع ذلك بأساليب إنسانية وأخلاقية ويهودية.

هل تريدون أرض إسرائيل الكبرى؟ لا مشكلة. تخلُّوا عن الديمقراطية. دعونا نفرض هنا نظاماً فعالاً من التمييز العنصري مع ما ينطوي عليه من مخيمات سجون وقرى اعتقال. غيتو قلقيلية، وغولاغ جنين.

هل تريدون أكثرية يهودية؟ لا مشكلة. إمّا أن تضعوا العرب في عربات القطارات، والحافلات، والجمال، والحمير، وتطردوهم جماعياً، وإمّا أن نفصل أنفسنا عنهم فصلاً تاماً من دون حيل وأحابيل. لا ثالث لهذين السبيلين. ينبغي لنا أن نزيل المستوطنات كلها – أكرر كلها – ونرسم حدوداً معترفاً بها دولياً بين الوطن القومي اليهودي والوطن القومي الفلسطيني. يجب أن يطبق قانون العودة اليهودي داخل الوطن القومي اليهودي فحسب، وحق عودتهم داخل حدود الدولة الفلسطينية.

هل تريدون الديمقراطية؟ لا مشكلة. إمّا أن تتخلوا عن أرض إسرائيل الكبرى، حتى آخر مستوطنة وموقع استيطاني، وإمّا أن تمنحوا المواطنية الكاملة وحقوق التصويت للجميع، بمن فيهم العرب. والنتيجة طبعاً هي أن الذين لا يريدون الدولة الفلسطينية إلى جانب دولتنا سيحصلون على دولة في وسطنا، عن طريق صندوق الاقتراع.

هذا ما ينبغي لرئيس الحكومة أن يقوله للشعب. عليه أن يعرض الخيارات عرضاً صريحاً: العنصرية اليهودية، أو الديمقراطية؛ المستوطنات، أو الرجاء لكلا الشعبين؛ الرؤى المزيفة الخاصة بالأسلاك الشائكة، والحواجز الأسمنتية، والمفجرين الانتحاريين، أو الحدود المعترف بها دولياً بين دولتين عاصمتهما المشتركة القدس.

لكن ليس في القدس رئيس للحكومة. فالآفة التي تتأكل جسم الصهيونية غزت الرأس. لقد أخطأ دافيد بن – غوريون أحياناً، لكنه ظل مستقيماً كالسهم. وعندما أخطأ مناحم بيغن لم يطعن أحد في دواعيه. لم يبق شيء من هذا. فاستطلاعات الرأي، التي نشرت في نهاية الأسبوع المنصرم، أظهرت أن أكثرية الإسرائيليين لا تؤمن بنزاهة رئيس الحكومة الشخصية – ومع ذلك فهي تثق بقيادته السياسية. بعبارة أُخرى: إن رئيس حكومة إسرائيل الحالي يمثل شخصياً كلا جانبي اللعنة: أخلاقاً شخصية مشبوهة، وازدراء مكشوفاً للقانون – مقرونين بوحشية الاحتلال ودوس أي فرصة

للســـلام بـالأرجل؛ هذه هـي أمتنـا، هؤلاء هم قـادتهـا. والنتيجة التي لا منـاص منهـا هـي أن الثورة الصهيونية ماتت.

لِمَ إذاً ترى المعارضــة صــامتة؟ ربما لأنه الصـيف، أو لأنها متعبة، أو لأن البعض يود الالتحاق بالحكومة مهما يكن الثمن، حتى لو كان المشـــاركة في الآفة. لكن بينما هم يترددون تفقد قوى الخير الرجاء.

هذا هو وقت الخيارات الواضحة. وكل من يتلكأ في تقديم موقف حاسم – أسود أو أبيض – إنما يشـارك فعلياً في الانحطاط. فالأمر ليس مسـألة حزب العمل ضـد حزب الليكود، أو اليمين ضد اليسـار، وإنما الصـحيح ضـد الخطأ، والمقبول ضد غير المقبول، والملتزم بالقانون ضـد منتهك القانون. المطلوب ليس إيجاد بديل من حكومة شـارون وإنما رؤية تنطوي على الأمل، بديل من تقويض الصـهيونية وقيمها على أيدي الصـم، والبكم، والأفجاج.

ولا بد لأصدقاء إسرائيل في الخارج – اليهود وغير اليهود على حد سواء، رؤساء، ورؤساء حكومات، حاخامين وعلمانيين – من أن يختاروا أيضاً. عليهم أن يبادروا إلى مســـاعدة إســـرائيل على الملاحة في خريطة الطريق إلى قدرنا القومي كمنارة للأمم، ومجتمع للسلام والعدل والمساواة.■

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
http://www.palestine-studies.org/ar/mdf